خاتمة بطل وقعة الزاب

(٢)

نعى الخليفة أبو العباس إلى أخيه أبى جعفر وهو عائد من موسم الحج مع أبى مسلم الخراسانى . وكان قد تقدم على أبى مسلم فى الطريق ، فلما تلقى كتاب النعى توقف عن المسير واستقدم أبا مسلم ، فأقبل أبو مسلم حتى قدم عليه ، فلما جلس ألقى إليه الكتاب ، فقرأه و بكى واسترجع . وكان أبو جعفر رجلاً ركيناً مجرباً لا يطير بلبه بريق النجاح ، ولا يخدعه إقبال الحظ ، فلم يصرفه سروره بالخلافة عن التفكير فيما عسى أن يكون موقف عمه عبد الله منه وهو على رأس جيش كامل الأهبة موفور السلاح ، وأخوه صالح وال على مصر ، وأخوه سليمان وال على البصرة . وكان يعرف طموح عبد الله و إقدامه وجزالة رأيه وقوة شكيمته ، وقد كان المنصور من قبل الخلافة محبذاً للفتك بأبى مسلم لسوء اعتقاده فيه ، وتخوفه على مكانة الأسرة من تفاقم سلطانه ، فلماذا لا يستغله قبل ذلك فى محاربة عبد الله إذا حدثته نفسه بالامتناع عن البيعة وادعاء الخلافة لنفسه ؟

أمثال هذه الأفكار كانت تدور بنفس أبى جعفر عند لقائه أبا مسلم . وقد أفضى إلى أبى مسلم بمخاوفه من عمه وتظاهر بالجزع حتى أخذ أبو مسلم

يهون عليه الأمر ، وبايع له أبو مسلم ، وبايع الناس ، وأقبلا حتى قدما الكوفة .

وبعث عيسى بن موسى رسولاً بالبيعة إلى عبد الله بن على ، فحدث ما كان منتظراً ، فقد امتنع عبد الله عن البيعة ، وأمر منادياً فنادى الصلاة جامعة ، فاجتمع إليه القواد والجند ، فقرأ عليهم الكتاب بوفاة أبى العباس ، ودعا الناس إلى نفسه ، وأخبرهم أن أبا العباس حين أراد أن يوجه الجنود إلى مروان ، دعا بنى أبيه فأرادهم على المسير إلى مروان وقال : « من انتدب منكم فسار إليه فهو ولى عهدى » فلم ينتدب له غير عبد الله ، وإنه خرج من عنده وقتل من قتل على هذا الأساس ، وشهد له بذلك عدة من قواد أهل خراسان .

ورحل أبو جعفر عن الكوفة ، وشخص إلى الأنبار ، وأقام بها وجمع إليه أطرافه ، ولما خرج عبد الله على أبى جعفر استدعى أبا مسلم وقال له « ليس لعبد الله غيرى أو غيرك » ، وكان أبو مسلم يتوقع خروج عبد الله ، وكان قد انتوى من قبل أن يقف على الحياد من هذا الخلاف ويقدم الطاعة لمن يظفر منهما بالآخر ، فلما استشاره المنصور فى أمر عبد الله قال له « يا أمير المؤمنين ، إن أمر عبد الله بالشام أقل وأذل ، وأمر خراسان أمر يجل خطبه » واحتال عليه المنصور بعد ذلك حتى قبل التوجه إلى محاربة عبد الله كارهاً ، وكان عبد الله قد رحل فى جيشه من أطراف الدروب وعاد إلى حران ، فلما بلغه إقبال أبى مسلم جمع إليه الجنود والسلاح

وخندق ، وجمع إليه الطعام والعلوفة وما يصلحه ، ومضى أبو مسلم سائراً من الأنبار لم يتخلف عنه من القواد أحد ، وارتكب عبد الله فى خلال ذلك خطأ سياسياً جسيما ، وأتى عملا وحشياً منكراً ، وذلك أنه خشى ألا يناصحه أهل خراسان ، فغدر بهم وقتل منهم عدداً ضخما ، وحاول الفتك بالقائد الخراسانى القدير حميد بن قحطبة ، ولكن حميداً فطن لحيلته وهرب منه وانضم إلى جيش أبى مسلم .

وأقبل أبو مسلم فنزل على مقربة من جيش عبد الله ولم يعرض له ، ثم أخذ طريق الشام ، وكتب إلى عبد الله: « إنى لم أومر بقتالك ولم أوجه له ، ولكن أمير المؤمنين ولانى الشأم وإنما أريدها » ، فرأى من كان مع عبد الله من جند الشام — وهم أكثر جيشه — أن يخرجوا إلى الشام ليدفعوا عن بلادهم غائلة أبى مسلم ، ولم تخدع حيلة أبى مسلم عبد الله ، ولكنه حاول عبثاً أن يثبت لهم أن أبا مسلم لا يريد الشام كما زعم ، وأنه لم يوجه إلا لقتالهم ، وغلب على أمره أخيراً وارتحل من معسكره متوجهاً نحو الشام ، وتحول أبو مسلم حتى نزل فى معسكره وغور ما كان حوله من المياه وألقى فيه الجيف ، وعاد عبد الله فنزل فى الموضع الذى عسكر فيه أبو مسلم ، واقتتلوا خمسة أشهر ، وأهل الشام أكثر فرساناً وأكمل عدة . وعمل لأبى مسلم عريش فكان يجلس عليه وينظر إلى القتال ويرسم الخطط ويصدر الأوامر ، ومكر أبو مسلم فى النهاية بجيش عبد الله وهزمه

هزيمة نكراء ، ومضى عبد الله هارباً حتى قدم البصرة على أخيه سليمان وأقام عنده متوارياً .

وأغضى أبو جعفر عن عبد الله إغضاء موقوتاً ، فقد كسر شوكته وأمن شره إلى حد كبير ، وفرغ لمعالجة مشكلة أبي مسلم ، وكان يعتقد أن قتله ضرورة سياسية لا مندوحة عنها ، وقد اصطنع فى استدراجه الكثير من أفانين المكر وأساليب الدهاء ، وأخمد الثورات التى تلت مصرعه ، وأراد عبد الله أن يخطو خطوة يستلين بها قلب المنصور ، فبايع له فى سنة ثمان وثلاثين ومائة ، ولكن المنصور لم يكن الرجل الذى يقنع مع خصومه بأنصاف الحلول ، وكان همه قبل كل شيء التمكين لملكه ، وكان لا يعرف المجاملة ولا الرحمة فى مراس الحوادث ومعترك السياسة . ففى العام التالى عاد إلى تناول مسألة عبد الله ، وبدأ ذلك بعزله عمه سليمان عن البصرة ، وولى ما كان إليه رجلا من صنائعه اسمه سفيان بن معاوية ، فخامر الخوف من هذه الحركة عبد الله وعدها نذير شر فتوارى هو وأصحابه ضناً بأنفسهم ، وبلغ ذلك المنصور فبعث إلى سليمان وعيسى ابنى على وكتب إليهما فى إشخاص عبد الله ، وكتب إلى سفيان بن معاوية يعلمه ذلك ويأمره بإزعاجهما واستحثاثهما والتضييق عليهما للخروج بعبد الله ومن معه من خاصته ، فكاتب سليمان وعيسى أبا جعفر فى أن يؤمنه ، واستقر الأمر على إعطائه الأمان ، وكان ابن المقفع يكتب لعيسى بن على ، فأمره عيسى بعمل نسخة للأمان لعبد الله فعملها ووكدها واحترس من كل تأويل يجوز

أن يقع فيها ، وترددت بين أبي جعفر و بينهم فى النسخة كتب إلى أن استقرت على ما أرادوا من الاحتياط ، ولم يتهيأ لأبى جعفر إيقاع حيلة فيها لفرط احتياط ابن المقفع ، وكان الذى شق على أبى جعفر وساءه وأحقده أنه قال فى النسخة : يوقع بخطه فى أسفل الأمان « و إن أنا نلت عبد الله بن على أو أحداً ممن أقدمه معه بصغير من المكروه أو كبير أو أوصلت إلى أحد منهم ضرراً سراً أو علانية ، على الوجوه والأسباب كلها ، تصريحاً أو كناية أو بحيلة من الحيل ، فأنا نفيّ من محمد بن على بن عبد الله ، ومولود لغير رشدة ، وقد حل لجميع أمة محمد خلعى وحربى والبراءة منى ، ولا بيعة لى فى رقاب المسلمين ، ولا عهد لى ولا ذمة ، وقد وجب عليهم الخروج من طاعتى ، وإعانة من ناوأنى من جميع الخلق ، ولا موالاة بينى و بين أحد من المسلمين ، وهو متبرىء من الحول والقوة ومدع ، إن كان ، أنه كافر بجميع الأديان ، ولقى ربه على غير دين ولا شريعة ، محرم المأكل والمشرب ، والمناكح والمركب ، والرق والملك والملبس على الوجوه والأسباب كلها ، وكتبت بخطى ولا نية لى سواه ، ولا يقبل الله منى إلا إياه والوفاء به » . وإنى أرجح أن ابن المقفع بعد أن أنشأ هذا الأمان أخذته نشوة « الخلق » وأريحية الابتكار واعتقد بتلك البساطة النبيلة التى تغلب على طباع كبار الكتاب والمنشئين أنه قد عقد لداهية بنى العباس و إمامهم فى أساليب السياسة آخية لا يقطعها المهر الأرن ، ولكن هيهات فقد كان المنصور لا تضيق به خطة ، ولا تستعصى عليه حيلة ، وكان معين مكائده

لا ينضب ، وقد تخلص من توقيع هذا الأمان . بحيلة لا يسع الإنسان إزاءها إلا الإعجاب ببراعته ، فقد قال لأخوى عبد الله : « إذا وقعت عينى عليه فهذا الأمان له صحيح ، لأنى لا آمن أن أعطيه إياه قبل رؤيتى له ، فيسير فى البلاد ، ويسعى على بالفساد » وتهيأت له الحيلة من هذه الجهة — كما أوضح الجهشيارى فى كتاب الوزراء والكتاب ، ولما علم المنصور أن كاتب الأمان هو ابن المقفع أوحى إلى أصحابه أن يعملوا على اغتياله والخلاص منه .

وخرج سليمان وعيسى بعبد الله وبعامة قواده وخواص أصحابه ومواليه حتى قدموا على أبى جعفر ، فلما قدم سليمان وعيسى وطلبا الإذن لهما أذن لهما فدخلا عليه وأعلماه حضور عبد الله بن على وسألاه الإذن له ، فأذن لهما بذلك واسترسل معهما فى الحديث حتى شغلهما عن أمر عبد الله ، وكان قد هيأ له محبساً فى قصره ، وأمر به أن يصرف إليه بعد دخول عيسى وسليمان إليه ، ففعل ذلك به ، ولما أتم المنصور حديثه نهض من مجلسه وقال لسليمان وعيسى سارعا بعبد الله ، فلما خرجا افتقدا عبد الله من المجلس الذى كان فيه ، فعلما أنه قد حبس ، فانصرفا راجعين إلى أبى جعفر فحيل بينهما وبين الوصول إليه ، وأخذت عند ذلك سيوف من حضر من أصحاب عبد الله عن عواتقهم وحبسوا ، وأمر أبو جعفر بقتل بعضهم بحضرته وبعث بالبقية إلى خراسان فقتلوا بها .

ولما حبس عبد الله كان يكثر من التمثيل بقول العرجى !

أضاعونى وأى فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر

فبلغ ذلك المنصور فقال « هو أضاع نفسه بسوء فعله ، فكانت أنفسنا عندنا آثر من نفسه »

ولما خرج على المنصور محمد بن عبد الله بن الحسن العلوى الذى كان يلقب بالنفس الزكية ، وظهر بالمدينة ، أرسل أبو جعفر إلى عبد الله بن على وهو محبوس عنده يستشيره فى الموقف لما كان يعلمه من سداد رأيه وكمال عقله ، وأراد عبد الله أن يستغل ذلك فقال : « إن المحبوس محبوس الرأى » فأرسل إليه المنصور : « لو جاءنى حتى يضرب بابى ما أخرجتك وأنا خير لك منه وهو ملك أهل بيتك » فأرسل إليه عبد الله برأيه ، ولم تمنع الخصومة التى كانت بينهما المنصور من استصوابه والأخذ به .

ولما انتهى المنصور من إخماد ثورة العلويين ، وقضى على حركتهم وأمن جانبهم شرع يعالج مسألة وراثة العرش ، وكان أخوه أبو العباس — كما أوضحت فى الفصل السابع — قد عهد إليه بالخلافة من بعده على أن يكون ولى عهده عيسى بن موسى ، ولكن لم يكن من المحتمل أن رجلا شديد الاعتداد بنفسه حريصاً على السلطة مثل المنصور يترك وراثة الملك لأحد من غير ذريته وأبنائه ، بل كان المرجح أن يتلمس المنادح ويبتكر الحيل ليورث أحد أبنائه الخلافة ، لأن مآثر الأبناء تكملة لحياة الآباء ، والرجل المحب للقوة والراغب فى الحياة يحرص على تمديد حياته واستبقاء نفوذه من ناحية

تمهيد الطريق لأبنائه وتوطيد مكانتهم وتمكينهم من وراثة الملك ، ومثل هذا الرجل لا تنتهى مطامعه عند القبر بل تمتد إلى ماوراءه فى تأييد أولاده وتأبيد أحفاده . ولما حدثت ثورة العلويين التى كان يعرف المنصور شدتها وخطورتها استدعى عيسى بن موسى ، وأسند إليه قيادة الجيش الذى أرسله لإخمادها ، وقال لأحد المؤتمنين على سره « أرجو أن يقتل أحدهما الآخر » .

ولكن شاء القدر أن يعود عيسى منتصراً مظفراً على رأسه إكليل الغار ، وكان المنصور قد عزم على تقديم ابنه المهدى فى الخلافة عليه ، وكلم عيسى فى ابتداء الأمر برقيق الكلام ، ولما رأى امتناعه أرغمه إرغاما ، وفرض عليه التنازل عن ولاية العهد للمهدى فرضاً ، ولم يكتف بذلك ، وأراد أن يتخلص من عيسى بن موسى وعمه عبد الله معاً ، وكان قد عزل عيسى بن موسى عن ولاية الكوفة وأوفده إلى بغداد ، فدعا به ذات ليلة فى جوف الليل ، و بعد أن تحدث معه فى مسائل شتى صرف الحديث إلى عمه عبدالله وقال له يا عيسى إن هذا أراد أن يزيل النعمة عنى وعنك وأنت ولى عهدى بعد المهدى ، والخلافة صائرة إليك ، فخذه إليك فاضرب عنقه ، و إياك أن تخور أو تضعف ، فتنقض علىّ أمرى الذى دبرت » ثم مضى بعد ذلك إلى الحجاز للقيام بفريضة الحج ، وكتب إلى عيسى ابن موسى من طريقه ثلاث مرات يسأله ما فعل فى الأمر الذى أوعز إليه فيه ، فكتب إليه عيسى أنه قد أنفذ ما أمره به ، فلم يشك فى أنه قد

فعل ما أمره به ، وقد خدع المنصور فى هذه المرة . وكان عيسى يعرف دهاء أبى جعفر ويشك فى نياته ومقاصده ، فلما دفع إليه عمه عبد الله ليقتله استراب فى الأمر وأحجم عن قتله واستشار كاتبه بعد أن أوقفه على جلية الأمر فقال كاتبه « إنه أراد أن يقتلك ويقتله ، أمرك بقتله سراً ، ثم يدعيه عليك علانية ، ثم يقيدك به » وأشار عليه أن يستر عبد الله فى منزله ، ولا يطلع على أمره أحداً ، وقدم المنصور من الحج مطمئن البال من ناحية الخلاص من عبد الله ، ودس إلى عمومته من يحركهم على مسألة هبة عبد الله لهم ، ويطمعهم فى أنه على استعداد لذلك ، فجاءوا إليه وكلموه ، وأظهروا له رقة ، رجاء أن يزول ما فى نفسه ويصفح عن عبد الله ، فأظهر القبول واستدعى عيسى فأتاه ، فطلب إليه أن يرد عمه عبد الله لأنه رأى الصفح عنه وتخلية سبيله ، فقال له عيسى « ألم تأمرنى بقتله فقتلته ؟ » فأنكر المنصور ذلك وقال له : « إنما امرتك بحبسه فى منزلك » ثم قال لعمومته « إن عيسى قد أقر لكم بقتل أخيكم ، وادعى أنى أمرته بذلك وقد كذب » فطلبوا دفعه إليهم ليقتلوه به فقال لهم « شأنكم به » فأخرج عيسى إلى الرحبة واجتمع الناس وشهر الأمر ، وقام أحدهم فشهر سيفه وتقدم إلى عيسى ليضربه ، فلما تبين عيسى خطورة الأمر طلب أن يردوه إلى المنصور ، فلما ردوه إليه ذكر له أن عمه عبد الله حى يرزق ، وأنه مستعد لإحضاره ، ووافق المنصور على ذلك ، فلما رد عيسى عبد الله قال المنصور « يدخل حتى أرى رأيى » وصرف بنى عمه ،

وأراغ المنصور المخرج من هذه الورطة ، فهداه رأيه ودله مكره على طريقة عجيبة للخلاص من عبد الله ، وذلك أنه جعله فى بيت أساسه ملح ، وأجرى فى أساسه الماء فسقط عليه البيت فمات ، وهكذا كانت خاتمة بطل وقعة الزاب ، وهازم جيش مروان ، وأحد موطدى أركان الدولة العباسية . واتفق بعد وفاة عبد الله على هذه الصورة أن ركب المنصور يوماً مع أحد أصحابه واسمه عبد الله بن عياش ، فقال له وهو يجاريه « أتعرف ثلاثة خلفاء أسماؤهم على العين مبدؤها قتلوا ثلاثة خوارج مبدأ أسمائهم العين ؟ » فقال له : « لا أعرف إلا ما تقول العامة إن علياً قتل عثمان وكذبوا ، وعبد الملك بن مروان قتل عبد الرحمن بن الأشعث وعبد الله بن الزبير وعمرو بن سعيد ، وعبد الله بن على سقط عليه البيت » فقال له المنصور « فسقط على عبد الله بن على البيت فأنا ماذنبى ؟ »

فقال له صاحبه : « ما قلت إن لك ذنباً ! »

وقد تحدث صاحبه بلسان السياسى المداهن ، ولم ينطق بلسان الإنسان الحر . ولكن لماذا لم يجد المنصور سبيلاً إلى الصفح عن عمه عبد الله بعد أن غلبه فى ميدان القتال وجرده من السلاح ، وأبعده عن مسرح الحوادث ؟ الواقع أن المنصور كان داهية عميق الدهاء جيد الخبرة بالنفس الإنسانية ، وقد أدرك بحصافته الواعية وقوة حسه أن عبد الله بن على من ذوى الطبائع القوية الوثابة التى لا تعترف بالهزيمة ولا يتسور إليها اليأس والتى لا تنى تعمل لتسترد مكانتها وتصل إلى غايتها ، وغيره قد يعرف

اليأس والاستسلام ويخلد إلى السكينة ويطمئن إلى السلوان ، ولكن أمثاله من الجبابرة الطامعين يعتقدون على الدوام أن القدر قد أعد لهم دوراً مأثوراً فى رواية الحياة ، وقد دفع عبد الله ثمناً غالياً لطموح نفسه ، وجموح خياله ، ومهما كان من قسوته وخطل سياسته فإنه من الشخصيات التى ترغم المؤرخ على دراستها ، والعناية بأمرها ، وأحسب هذا من دلائل العظمة وسمات الامتياز .

١٩٤٤/١/١/١٢٠١

obeikandl.com

فهـــرس

	صفحة
مقدمة	٣
نابليون وسخرية الأقدار	٧
نابليون وتاليران	١٩
لغز تاريخى حول وفاة القيصر الاسكندر	٣١
فولتير وفردريك الأكبر	٤٣
من أجل كلمة	٥٥
بطل بولندى	٦٧
بين مكسيم جوركى ولينين	٧٩
تصادم عبقريتين :	٩١
فصول من حياة الحكم أمير الأندلس (١)	١١٣
فصول من حياة الحكم أمير الأندلس (٢)	١٢٣
خاتمة بطل وقمة الزاب (١)	١٣١
خاتمة بطل وقمة الزاب (٢)	١٤١

obeikandl.com